التصوف السليم جوهر الإسلام ولبّه

وابن تيمية من أبرز المنافحين عنه والداعين إليه

العلامة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي

بقطع النظر عن كلمة "التصوف" وما دار من جدل حول معناها واصلها، وحول مدى مشروعية التعبير بها عن مضمون لم يظهر لكثير من الناس مدى علاقته بالإسلام، سواء في مبادئه الأساسية أو جوانبه الكمالية والتحسينية فإن من الأهمية بمكان أن نتبين المعنى المراد بهذه الكلمة، ثم نتبين العلاقة بينه "أي بين التصوف"، وبين حقيقة الإسلام.

ذلك لأننا إن أدركنا هذه العلاقة من خلال موضوعية علمية متحررة، كان بوسعنا، بل ترتب علينا أن نجعل من هذه العلاقة ميزاناً يكشف عن مدى شرعية هذا المضمون أو عدم شروعيته، ما دمنا نتخذ بصدق من الإسلام محور التزاماتنا الفكرية والسلوكية على السواء.

ولعل أجمع ما يكشف عن المعنى المراد بكلمة التصوف، ومن ثم يوضح العلاقة بينه وبين حقيقة الإسلام، يتمثل في عرض الحقيقة التالية:

إن قيمة التزام المسلم بالإسلام، تظهر على صعيدين اثنين، قد يتضافران و يجتمعان، وقد ينفك الواحد منهما عن الآخر:

أما الصعيد الأول: فهو الساحة الدنيوية التي يتجلى فيها تعامل الناس بعضهم مع بعض، ومن المعروف أن الإنسان يجب أن يعامَلَ على أنه مسلم، من كل

الجوانب، بمجرد أن يتوافر أركان الإسلام في ظاهر أقواله وأفعاله، بأن ينطق بشهادة الإسلام، ويذعن لأركانه العملية، ولا يبدو منه في الظاهر ما يدل على إنكاره وتأبيه لشيء منها، كما توصف طاعاته وعباداته جميعاً بالصحة والقبول، ما دامت هي في الظاهر كذلك، أي فليس لقاضٍ أن يتهم مسلماً بخلاف ما قد ظهر منه في السلوك وصحة الطاعات والعقود. دليل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما رواه مسلم بسنده عن أم سلمة أنه صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم، فقال: (إنما أن

بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضهم أن يكون له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليحملها أو ليذرها).

الصعيد الثاني: وأقول قبل بيانه إننا يجب أن نعلم أن هذا الحكم القضائي، في نطاق التعامل في دار الدنيا، ليس بالضرورة المقياس الدال على الحكم الأخروي الذي سيقضي به الله عز وجل بين عباده في الدار الآخرة، بل إن لذلك القضاء مقياساً آخر.

فالصعيد الثاني إذن إنما هو صفاء القصد وإخلاص القلب وموافقة الظاهر الذي كان يراه الناس للباطن الخفي الذي يطلع عليه الله عز وجل.

فهذا هو أساس قضائه عز وجل في حق عباده يوم القيامة، ودليل ذلك قول الله عز وجلَّ: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ..)، وقوله عزَّ وجلَّ: (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اتفق عليه الشيخان (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى..)، والأدلة على هذه الحقيقة في كتاب الله وسنة رسوله كثيرة جداً.

ويعبر علماء الشريعة الإسلامية عن الأحكام التي تتم على الصعيد الأول، بالأحكام القضائية، وعن التي يقضي بها الله عز وجل بين عباده أو في حقهم يوم القيامة، بالأحكام الدينية، أو الأحكام ديانة، ويعبر بعضهم عن الأولى بالشريعة، أي المتبعة في دار الدنيا، وعن الثانية بالحقيقة، أي التي ستطبق يوم القيامة.. ولا أهمية لاختلاف التعابير، ولا مشاحة في الاصطلاح، إن كان مضمون هذه التعابير والمصطلحات صحيحاً، فضلاً عن أن يكون محل اتفاق عند سائر علماء الشريعة الإسلامية.

غير أن المشكلة التي كان لا بدّ لها أن تؤرق فكر المسلم الصادق في إسلامه والراغب حقاً في النجاة يوم القيامة هي مشكلة التوفيق بين الظاهر من أحكام السلوك الدينية، والباطن من الإخلاص لوجه الله فيها، والصدق في الالتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيه ابتغاء وجهه وحده، وتطهير القلب من الغوائل التي لا يطلع عليها إلا الله ولا يحاسب عليها غيره، والتي تصد صاحبها عن بلوغ درجة الإخلاص في الأعمال والصفاء في النية...!

ذلك؛ لأن من السهل على الإنسان أن يتحلى، في ظاهره، بكثير من أوامر الله و أحكامه، دون أي انضباط حقيقي وجوهري بها، ودون أي إخلاص قلبي لها، ابتغاء الحصول على الحقوق والامتيازات الإسلامية في حياته الدنيوية.. ولا

يكلفه ذلك أكثر من مصائغه للناس، وستر لبواطن الزغل والانحراف بظاهر من الاستقام والالتزام.

أما الأمر العسير حقاً، فهو السعي إلى تطويع الباطن لما قد تحلى به الظاهر، بحيث يصبح ظاهر المسلم عنواناً على باطنه، بحيث إن تلبس ظاهره بأعمال الصلاة أو النسك، كان قلبه منصرفاً بالخشية والخضوع إلى مراقبة الله وذكره، وإن عامل الناس بمقتضى الأحكام الشرعية فيما يبديه لهم من ظاهر معاملاته، كان في قلبه من خشية الله وتعظيمه ما يجعله يفيض إخلاصاً للناس فيما يظهر لهم، وما يضمن تحقيق كامل التنسيق والتفاعل بين ما يُريهم من ظاهر أعماله وما يعامل الله به من باطن مشاعره وقصده.

أقول: إن تحقق هذا التناسق، يقتضي بالضرورة أن يتجرد القلب من آفات الكبر والأنانية والضغائن، وأن يتجرد عن سلطان الشهوات والأهواء الجانحة، ويتحرر من محبة الدنيا وزخرفها.

أجل؛ إن من العسير جداً تطويع القلب لهذا الذي لا يعسر أن تخضع له الجوارح والظواهر والصور، ذلك لأن إخضاع الظواهر يمكن أن يتم عن طريق التمرين والتمثيل، وبدافع من الطمع في الحصول على حظوظ دنيوية عاجلة، و لكن ما الذي يخضع المشاعر والقلب ــبعيداً عن رؤية الناس ورقابتهمــ لما خضعت له تلك الظواهر والأشكال؟ بل ما الذي يمكن أن يحرر القلب عن سلطات الشهوات والأهواء، وأن يجرده عن مشاعر الأنانية والأحقاد، حتى يمكن توجيهه بعد ذلك إلى مراقبة الله والمخافة من سطوته وعقابه؟

لم يكن غريباً أن تشغل هذه المشكلة بال المسلمين الراغبين في أن يكون إسلامهم مفيداً لهم في حكم القضاء الدنيوي، وأن يكون منقذاً لهم أيضاً في قرار الديانة الأخروية العائد إلى حكم الله عز وجل، أجل، لم يكن غريباً أن تشغل هذه المشكلة بال المسلمين الصادقين في إسلامهم، منذر صدر الإسلام إلى يومنا هذا. إنما الغرابة كل الغرابة هي أن يكون المسلم صادقاً في إسلامه، ثم لا تؤرقه هذه المشكلة ولا تخطر منه على بال.

و نحن لا نشك في أن القرآن يهدي إلى السبيل الأمثل لحلّ هذه المشكلة، وربط كل من الظاهر والباطن برباط السعي المخلص الصادق إلى مرضاة الله عز وجل، غير أن القرآن أجمَل بيان الحل في كلمة قدسية واحدة كرر الأمر بها وشدّد في التنبيه إلى ضرورتها، هي: "التزكية" ثم نبه إلى طريق واحد مرسوم لها، ألا وهو الذكر، ذكر الله عز وجل في كل حال، والابتعاد عن مطارح الغفلة وأسبابها. أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فزاد الأمر بياناً إذ ربط بين الإيمان والحب، ونبه إلى التلازم المستمر بينهما، وذلك في مثل قوله عليه الصلاة والسلام: (ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان...)، فذكر منهن (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)، والحديث متفق عليه فكيف تتم هذه التزكية، وهي فيما أجمع عليه العلماء، تطهير النفس من رعوناتها، وأهوائها الجانحة؟ وكيف السبيل إلى غرس محبة الله في القلب؟ ثم كيف السبيل إلى التخلص من الغفلات، وإيقاظ القلب والمشاعر إلى ذكر الله ومراقبته؟

ها هنا تكمن العقبة الكؤود، وعندها يتجلى معنى الجهاد الأكبر الذي ابتلى الله به الانسان، وجعله مجلى حقيقة العبودية لله عز وجل.

وعند هذه المعضلة يبرز دور التصوف الذي لم ينب عنه إلى اليوم سواه. وما ينبغي أن ننسى أننا إنما نتحدث عن مضمون هذه الكلمة، كما هو في ذهن جمهور علماء المسلمين لا سيما الصدر الأول، ولسنا نقف بأي اهتمام عند هذه اللفظة بحدّ ذاتها، كما هو دأب كثير من المستشرقين ومقلديهم.

وإذا أسقطنا هذه الكلمة المستحدثة أو المبتدعة عن الاعتبار، كان بوسعنا أن نتعرف على جوهر التصوف ومعناه، فهو ليس أكثر من سلوك السبل التربوية الممكنة، على درب هذا الجهاد الأكبر الذي ابتلى اله عبه عباده؛ وكان بوسعنا أيضاً أن نبصر بوضوح اتجاه همم المسلمين الصادقين في إسلامهم منذ عصر النبوة، إلى خوض غمار هذا الجهاد، جهاد

النفس من أجل تزكيتها من الرعونات والأوضار، ثم ربط العاطفة القلبية بحقائق الدين وأحكامه، عن طريق ربطها بمحبة الله ورسوله.

سبيل هذا الجهاد منذ عصر الصحابة فما بعد:

غير أن سبيل هذا الجهاد أمام أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، كان أقل وعورة بالنسبة إلى من جاء بعدهم، وذلك لأسباب، من أهمها رؤيتهم النبي صلى الله عليه وسلم، وجلوسهم إليه وسماعهم لكلامه وعظاته، فقد كان لذلك أثر كبير في غرس محبته في قلوبهم، وتأثير ذلك على نفوسهم، وهو الأمر الذي يستوجب بطبيعة الحال محبة كل ما يدعوهم إليه رسول الله، وإيثاره على كل ما قد يعارضه من نوازع الشهوات والأهواء. فمن ثم تجلت في حياتهم ظاهرة الطفرة التي لم نجدها ظهرت فيمن بعدهم. وأعني بها سرعة تحولهم عن أضاعهم الجاهلية التي كانت متحكمة بهم راسخة في حياتهم، إلى أتم معاني الالتزام بعزائم الدين وضوابطه وأحكامه.

ومن هذه الأسباب، بساطة الحياة التي كانت تحيط بهم، فقد كانت مغرياتها محدودة، ومحرماتها معدودة، ومن ثم فقد كان سبيل التسامي فوقها، والتحرر من غوائلها أقصر وأيسر.

ولكن لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنجز الله وعده للمسلمين الذين أنجزوا وعدهم له، ففتح لهم البلاد، ووسع من آفاق الدنيا التي خضعت لهم، واندلقت إليهم الدنيا ـــبزينتها وزخرفهاـــ من كل صوب، كان لا بدّ أن يتضاعف أمامهم الجهد في سبيل تزكية النفس ومجاهدتها، ذلك لأن القيود أصبحت أكثر وأثقل.

ولم يكن في مناهجهم وأصولهم التربوية تلك، ما يتعارض مع كتاب الله وسنة رسوله، بل كان كله مأخوذاً منه مخرجاً عليه، وكانوا في صنيعهم الذي فعلوه لا يختلفون عن أولئك الذين استشعروا الحاجة فاستخرجوا قواعد الأصول في فهم النصوص من اجتهادات الصحابة، وعن أولئك الذين استشعروا الحاجة فاستخرجوا قواعد البلاغة العربية من كلام الله عز وجل.

ولا نزال نذكر في مقدمة من أقدموا على هذا الصنيع جلالة وسبقاً، الحارث المحاسبي"243ت" ،وأحمد بن أبي الحواري"246ت" ،والجنيد البغدادي "298ت". وإنما درج هؤلاء فيما كتبوا ونظموا على منوال من سبقهم إلى ذلك سلوكاً وعملاً، من جلة التابعين ومن بعدهم كالحسن البصري، وسفيان الثوري، وعطاء بن أبي رباح. وما خرجوا في شيء من أصولهم التربوية على ميزان الكتاب والسنة قط، ولكن إما أن يكون دخوله في هذا الميزان صريحاً ومباشراً، وإما أن يكون اجتهاداً واستنباطاً.

ونذكِّر بما اتفق عليه العلماء، من أن كل ما يتوقف عليه الواجب يصبح واجباً، وكل ما يتوقف عليه المندوب يكون مندوباً، ما لم يكن هذا المتوقف عليه منهياً عنه، نهياً لا يقل في أهميته والجزم به من ترك الواجب المنصوص عليه.

إذن، فمهما كانت السبل التربوية غير منصوص عليها في قرآن أو سنة، نصاً مباشراً، ولكنها تعين في تزكية النفس وتصعيد العاطفة والوجدان، فإنها تأخذ حكم الغاية التي تتحقق من ورائها، وهذه الغاية داخلة كما يصرح الإمام ابن تيمية رحمه الله في أصول الإيمان وقواعد الدين. فالسعي إلى التحقق بها واجب على جميع الخلق باتفاق الأئمة.

وقد علمنا أن هذه الأصول إنما تدخل كلها في نطاق الأعمال الباطنة، كمحبة الله، والخوف منه، والرضا عنه، والإخلاص له، والتوكل عليه، والزهد في كل ما يحجب أو يبعد عنه، وإنما مدار ذلك كله على العاطفة والوجدان.

فلما أخذت هؤلاء الربانيون أنفسهم بالسبل التربوية المتنوعة للتحقق بهذه الصفات، وأرشدوا إلى ذلك عامة الناس وخاصتهم، وسلك الكثير منهم هذا السبيل ـنشأ عن تفارقهم في السير والسبق إلى ذلكـ ومدى الاستمرار عليه ما سمي بالمقامات، كالأحوال، والفناء، والبقاء، وأطلقوا على من أخذوا أنفسهم بهذه السبل التربوية اسم: السالكين.

غير أن هذا السلوك، قد أدركه هو الآخر، ما أدرك أنواع العلوم والمعارف الإسلامية الأخرى من أدواء البدع والزغل والانحراف عن خط الاستقامة والقصد، فامتزج بالحق الذي ندب إليه العارفون والربانيون، كثير من الباطل الذي روج له الجاهلون آناً، والفسقة والزنادقة آناً آخر.

ولسنا هنا بصدد الكشف عن تفاصيل هذه البدع والانحرافات التي تسللت إليه، فإن لذلك مجالاً آخر... ولكن المهم أن نعلم أن هذا السلوك التربوي يمثل لباب الدين، وأن المسلمين الصادقين في إسلامهم ما زالوا يتلمسون السبيل الشرعي إليه منذ عصر الصحابة إلى يومنا هذا، بقطع النظر عن مظاهر الانحراف التي قد تتعرض به.

ابن تيمية ظُلِمَ فيما نسب إليه بالقدر الذي ظُلِمَ به التصوف ذاته

إذا كان هذا الذي ذكرناه واضحاً وصحيحاً، فما الذي يُنْكَرُ من هذا السلوك التربوي، في ميزان الشريعة الإسلامية ونصوص الكتاب والسنة؟

إننا لن نجد في شيء من هذا السلوك التربوي ــبقطع النظر عن الألفاظ والمصطلحات والانحرافات المتربصة بهــ إلاّ ما يؤيده الميزان الشرعي، بل يأمر به ويدعو إليه، بل لن نجد الإسلام، إن أسقطنا منه هذا المعنى التربوي، وقطعناه عن الغاية المنوط بها، إلا هيكلاً فارغاً من المضمون، ومظهراً متجرداً عن أي مدلول.. وما أكثر ما تخادَعَ الناس بهذه المظاهر، ثم أذاقو بعضهم بعضاً من مرارة الكيد والأذى، وما هيج بينهم نيران العداوة والبغضاء، وقطعهم في الأرض فئات وجماعات، حتى ظن السذج والجاهلون أن هذا هو شأن الإسلام، فهو أضعف من أن يجمع شملاً أو يكوّن قوة أو يؤلف بين قلوب...!

ولكننا قد نعجب، إذ نذكر أسماء أفذاذ من العلماء الذين عرفوا بالاستقامة على الحق والغيرة على الدين، اشتهروا ــعلى ألسنة كثير من الباحثين والمترجمين وعامة الناســ بإنكارهم للتصوف، أي: لمضمونه الذي عرفنا به قبل قليل، وبالتحذير منه، وبنسبة المشتغلين به إلى التبديع وربما التفسيق! ومن أظهر هؤلاء العلماء الإمام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم رحمهما الله... ولا يزال خصوم التصوف اليوم، يشدون أزرهم في هذه الخصومة وبالاستشهاد بابن تيمية وابن القيم وبالاعتماد على ما يروجونه لهما من آراء وأقوال في هذا الموضوع.

والحق الذي ينبغي أن نعرفه في هذا الأمر، هو أن كلاً من ابن تيمية وابن القيم قد ظُلم فيما نسب إليهما من ذلك، بالقدر الذي ظلم به التصوف نفسه...! والغريب أن كثيرين هم العلماء الذين وقفوا من هذه المسألة موقف ابن تيمية وتلميذه، دون أي اختلاف يذكر.. كالإمام القرطبي، وأبي بكر بن العربي، وابن أمير الحاج، ولكن ضخامة هذا الاتهام لم تنحط إلا على ابن تيمية أولاً ثم تلميذه ثانياً !.

ولا أدري لذلك إلا سبباً واحداً، هو كثرة ما كتبه ابن تيمية في هذا الموضوع، والشدة التي يتميز بها أسلوبه في المحاجّة والنقاش، على حين أن الآخرين، وقفوا الموقف ذاته، ولكن بإيجاز وفي مناسبات عابرة، و دون تشديد ولا تعنيف.

والآن، علينا أن نتساءل: ما حقيقة موقف الإمام ابن تيمية رحمه الله من مضمون التصوف بقطع النظر عن اسمه وعنوانه؟

والجواب: أن ابن تيمية رحمه الله، يسمي التصوف بالتربية الباطنة، وهي التي تهدف فيما يعلمه ويجزم به، إلى تنمية محبة الله والخوف منه والإخلاص له والرضا عنه والتوكل عليه، في

القلب، ويعدّها ابن تيمية جزءاً لا يتجزأ من جوهر الدين وأصول الإيمان، ويقرر أن السعي إلى هذه التربية واجب على المسلمين جميعاً.

ويقرر ابن تيمية رحمه الله أن السالك في هذا الطريق، من شأنه أن يتدرج في مراتب تقتضيها طبيعة التنقل التدريجي من حال الغفلة عن الله إلى ذكره وشهوده، ومن حال الإعراض عنه إلى الإقبال عليه، وربما ارتقى به هذا النهج التربوي إلى حالة من وحدة الشهود، وهي "الحالة التي يفنى فيها السالك عن الأكوان بالمكوّن، وبرؤية موجده عن ملاحظة وجوده؛ وربما اندفع في غمرة الفناء عن نفسه إلى النطق بكلمات لا تنضبط بميزان الشرع، ولا العقل "، كقول أبي يزيد البسطامي قدس الله روحه: "ما في الجبة إلا الله"؛ وكقول بعضهم: "أنا الحق أو سبحاني".

وعلى الرغم من أن ابن تيمية يقر أن حال الصحو أفضل وأسلم من هذه الحال، حيث يكون كل من العقل والوجدان على وفاق، وهي الحالة التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثر أصحابه، إلا أنه يستدرك فيقرر أنه لا جناح على من وقع في حال الفناء ووحدة الشهود، ويلتمس لهم العذر قائلاً: "إذ في مثل هذا المقام يقع السُّكر الذي يسقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان، كما يحصل بسكر الخمر، وسكر عشق الصور، فكذلك قد يحصل الفناء بحال خوف أو رجاء، كما يحصل بحال حب. فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق".

ولكنه رحمه الله يعود فيحذر في الوقت ذاته من الاقتداء بهم تقليداً وتصنّعاً فيقول: "وكما أنه لا جناح عليهم، فلا يجوز الاقتداء بهم، ولا حمل كلامهم و أفعالهم على الصحة، بل هم في الخاصة مثل الغافل والمجنون في التكاليف الظاهرة". وقد قال فيهم بعض العلماء: هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً، فسلب عقولهم، وترك أحوالهم، وأسقط ما فرض بما سلب، ولهذا اتفق العلماء على أن حال البقاء أفضل من ذلك، وهو شهود الحقائق بإشهاد الحق، كما قال الله تعالى فيما روي عن رسوله: (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش ويمشي).

ثم يتحدث ابن تيمية عن فريق آخر، يروون، اعتماداً على أصول وحجاج فكرية وفلسفية، أن الله هو الوجود، وأنه لا وجود لسواه، لا به ولا بغيره، أي فهو الوجود والموجود معاً، ثم يقول عنهم "إن هذا القول والحال، للاتحادية، و الزنادقة من المتأخرين، كالبلياني والتلمساني، والقونوي ونحوهم الذين يجعلون الحقيقة أنه عين الموجودات، وحقيقة الكائنات، وأنه لا وجود لغيره"، ثم يقرر أن هذا الاعتقاد كفر وضلال.

تلك هي خلاصة موقف الإمام ابن تيمية من التصوف، فهو يؤكد ضرورة أخذ المسلم نفسه به، ضمن سلّم السلوك التربوي إلى تزكية النفس من الرعونات والأوضار، بل يراه جزءاً لا يتجزأ من جوهر الإيمان ولبّه، ثم أنه يلتمس العذر لأولئك الذين واصلوا مراقبة الله عز وجل من خلال التأمل في صفاته المبثوثة في مظاهر مخلوقاته، ففنوا عن هذه المظاهر بمظهرها، وذهلوا عن الصور بمصورها، يرى لهم العذر مع التحذير الشديد من تقليدهم، ومع التنبيه إلى أن الأكمل والأولى بالمسلم تلك الحالة التي يكون فيها المسلم متعاملاً مع كلا جانبي الجمع والفرق بتناسق واعتدال، وهو المستوى الذي دعا إليه الإمام فخر الدين الرازي، وعبر عنه بقوله: "كن ظاهراً مع الخلق، وباطناً مع الحق".

ثم يحذر من الانزلاق إلى الفلسفة الحلولية والاتحادية التي انجرف فيها بعض الزنادقة، باسم التصوف والشهود، إذ قرروا من خلال منظور فكري وفلسفي جانح أن وجود المكونات كلها هو ذاته وجود الله عز وجل.

ونحن عندما نتأمل في هذا الكلام، الذي يقوله ابن تيمية ــرحمه اللهــ لا نجد أي فرق بينه وبين جملة ما يقوله الإمام القشيري في رسالته المشهورة، في الموضوع ذاته. بل لن نجد أي خلاف بين كلام ابن تيمية هذا، وكلام سائر أئمة التصوف المشهود لهم بالاستقامة على الحق والبعد عن الزيغ والابتداع كالشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ أحمد الرفاعي، والشيخ محمد بن عطاء الله السكندري، وكالإمام الغزالي والإمام النووي.

ومع ذلك، قد اشتهر اسم ابن تيمية بين خصوم التصوف، بل في مقدمتهم، فما السبب؟! لقد ذكرت قبل قليل إن السبب في ذلك ربما كان مردّه إلى كثرة ما كتبه في التحذير من انحرافات المتصوفة أو الذين دسوا أنفسهم في هذا المسلك التربوي الشريف، مع الشدة التي تميّز بها أسلوبه في هذا الموضوع بالذات.

وإذا أردنا أن نفصل القول في هذا السبب وبيان ما قد يندرج فيه من أسباب فرعية، فإنا نقول: إن ما اشتهر عن ابن تيمية من خصومته للتصوف والمتصوفة، يعود إلى ثلاثة أسباب:

السبب الأول: موقفه المشهور والمعروف من الشيخ محي الدين بن عربي، وأعتقد أن الكل يعلم مدى قسوة ابن تيمية على ابن عربي، في هذا المجال.

السبب الثاني: إنكاره الشديد في أكثر من مناسبة على أولئك الذين انحرفوا بحقيقة التصوف عن نهجه القويم.

السبب الثالث: أن أكثر الذين يخاصمون حقيقة التصوف فعلاً، ممن جاء بعد عصر ابن تيمية إلى يومنا هذا، اتخذوا من ابن تيمية حجة و دريئة لهم.

فهذه هي جملة الأسباب التي إليها مرّد هذه الشهرة التي اصطبغت بابن تيمية رحمه الله، تضاف إليها شدّته المعهودة في الخصومة والمحاجّة، فقد ضخَّمت من هذه الأسباب وأبرزت لها حجماً قد يكون أكبر من حقيقتها في واقع الأمر.

ولعل من الخير أن نتناول كلاً من هذه الأسباب الثلاثة بشيء من البيان و التفصيل، والتعليق إن اقتضى الأمر ذلك.

السبب الأول. موقف ابن تيمية من ابن عرابي:

ولا تكاد تجد أياً من مؤلفاته خلواً من الحديث عن ابن عرابي، تضليلاً وتكفيراً وتفنيداً لما عرف به من القول بوحدة الوجود، بقدر كبير من القسوة والشدة.

ولا بدّ أن نقرر هنا الحقيقة التالية:

أولاً _إن ما قد ورد في كتب ابن عربي من القول بوحدة الوجود، أي القول بأن وجود الخالق ليس شيئاً أكثر من وجود مخلوقاته_ كلام باطل، وجنوح مباشر

وصريح عن النصوص الجلية القاطعة في كتاب الله عز وجل، وحسبك منها آيات الخلق والإبداع المعبرة عن الإبداع والتكوين. ومن ثم فإن الاعتقاد بوحدة الوجود هذه كفر بالله عز وجل وجحود بكتابه. ويدخل في حكمها كثير من العبارات في كتبه، لا سيما الفتوحات والتي تأتي ذيلاً لهذه العقيدة الباطلة.

غير أن الحكم ببطلان هذا الكلام وكفر قائله، لا يستلزم بالضرورة تكفير الشيخ ابن عربي ونسبة الزندقة والضلال إليه، بل إن ذلك الدليل أعم بكثير من هذا المدعى، ومن ثم فليس بينهما تلازم حتمي.

وبيان ذلك أن معظم الذين ترجموا لابن عربي رحمه الله، اتفقوا على أن فئات من الباطنية قد دست كثيراً المشهور "الفتوحات المكيّة"، وقد كان ذلك من دأبهم الذي عرفوا به، في السعي إلى ترويج أباطيلهم ودسائسهم.

ذكر ذلك ابن المقري في "نفخ الطيب"، ونقل ذلك عنه وأكده ابن العماد في كتابه "شذرات الذهب"، والشعراني في "اليواقيت والجواهر" وأطال القول في ذلك. كما بين بتفضيل وشواهد الحاجي خليفة في كتابه "كشف الظنون".

ومن أوضح ما يؤكد ذلك ما تراه من تناقض بين كثير من هذا اللغو المبثوث في فصول من كتاب الفتوحات، ونصوص أخرى في الفصول ذاتها، بحيث لو أردت أن تنقض ذلك اللغو وترّد عليه، لن تجد عبارة أوفى ولا أبين لذلك من تلك النصوص التي تقرؤها من قبل ذلك اللغو أو بعده، ونذكر نموذجاً لذلك كتابه "روح القدس في محاسبة النفس"، فقد حوى هذا الكتاب تحذيراً شديداً من كثير من بدع المتصوفة، ونقداً لكثير من عاداتهم وأحوالهم المخالفة للكتاب أو السنة ودعوة ملّحة إلى لجم سبل التزكية والتربية الباطنية بلجام الشريعة الإسلامية ..!!

ومن الواضح أنه لا مخلص من هذا التناقض، إلا في هذا الذي أجمع عليه معظم المترجمين والمؤرخين من أن الباطنيين أمعنوا دساً في كتبه.

ولقد قرأت لابن عربي رحمه الله بيتين، في آخر تائيته الكبرى، يعبران عن الحق الذي لا معدل عنه في ميزان العلاقة بين الخالق والمخلوق، وينبه فيهما إلى أن الكون بكل صوره وأشكاله إنما هو مجلى ومظهر لصفات الله عز وجل ومظهر ربوبيته. يقول:

وجدتٌ وجوداً لم أجد ثانياً له وشاهدت ذلك الحق في كل صنعة

وطالب غير الله في الأرض كلها كطالب ماء من سراب بقيعة

وإذا أمعنت النظر، تبين لك أن هذا الذي يقوله ابن عربي، هو بعينه ما يقرره علماء العقيدة الإسلامية من أن معين الوجود إنما هو وجود الله عز وجل، ثم أنه ينسكب في جداول وسواقي شتى يعبرون عنها آناً بالوجود الظلي وآناً بالوجود التبعي.

بل لقد أكد هذه الحقيقة نفسها على أتم وجه وبأدق تعبير ابن تيمية نفسه في رسالته التي يشرح فيها قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

فهو يقول في شرح هذا البيت الذي وصفه رسول الله بأنه أصدق ما قاله لبيد:

"كل الأشياء إذا تخلى عنها الله فهي باطل، يكفي في عدمها وبطلانها نفس تخلّي الله عنها".

فهل ترى من فرق بين كلام ابن تيمية هذا وكلام ابن عربي في البيتين المذكورين، وما قاله سائر علماء التوحيد في هذا الموضوع... ؟

فإذا ثبت هذا الذي نقول، فلعل القرار العدل في هذه المسألة، هو ما قرره ابن حجر الهيثمي في الفتاوى الحديثية، متبعاً في ذلك رأي كثير من العلماء، من حرمة قراءة كتاب الفتوحات لابن عربي رحمه الله، وبعض كتبه الأخرى التي تضم هذه المقولات الباطلة؛ مع الإمساك عن اتهامه رحمه الله بأي جنوح أو زيغ. فإن لنا من التحذير عن الكلام الباطل، ما يغني عن تفسيق من قد نسب إليه، مع قيام الاحتمالات التي أوردناها، وذكرنا الأدلة العلمية الثابتة عليها، فإنا لا نملك أن نجزم بأن هذا الباطل من كلامه يقيناً. بل لا نملك حتى الظن الراجح بذلك. كيف، وإننا نقرأ له في هذه الكتب ذاتها ما يناقض ذلك الباطل، ويرّد عليه وعلى القائلين به أبلغ رد...؟

السبب الثاني: إن إمعانه في الإنكار على مبتدعي المتصوفة كان أكثر من إشادته بصالحيهم، والمستقيمين منهم: فلقد كتب ابن تيمية رحمة الله كلاماً كثيراً في التصوف وأهله، ولكن صرف أكثر جهده إلى تفنيد انحراف المنحرفيين والمبتدعين منهم، وما اتجه إلى الإشادة بجهود الصالحين والمستقيمين منهم، والدعوة إلى سلوك مسلكهم إلا في مناسبات، تعدّ قليلة بالنسبة إلى ذلك الجانب السلبي الذي استأثر به.

ولعل العذر الذي حمل ابن تيمية على هذا السلوك، أنه نظر، فوجد أن هذا المنهج التربوي الذي يمثل جوهر الإسلام ولبه، والذي يجب على كل مسلم أن يأخذ نفسه به، على حدّ تعبيره في أكثر من مرة، قد أدركه هو الآخر ما أدرك كثيراً من أنواع العلوم والمعارف الأخرى من أواء البدع والانحراف عن جادة القصد والاستقامة، بل كان نصيب هذا المنهج التربوي من هذا البدع و الانحرافات أشدّ وأكثر!. فأخذ يعالج هذه الظاهرة طبق قاعدة: التخلية قبل التحلية.

ولعل من الخير أن نشير هنا إلى أهم أسباب هذه الانحرافات التي ظهرت فعلاً، في عصر ابن تيمية ومن بعده، فكدِّرت صفاء هذا السلوك التربوي العظيم.

أول هذه الأسباب: الزندقة وإضمار السوء والكيد للإسلام، فلقد أقبل كثير من أصحاب المقاصد السيئة إلى تلك المواجيد التي انجرفت فيها بصدق مشاعر بعض الصالحين، ففلسفوها ووضعوها في قواعد فكرية وصيغ اعتقادية، وتكلفوا في أنفسهم محاولتها والاتصاف بها، بل جعلوها من أهدافهم المرسومة. حتى غدت الشطحات حقاً يُدعى إليه ومبدأ يجادَلٌ من دونه.

ثانيهما: الجهل، فقد اندفع إلى هذا السبيل ناس كثيرون، دون أن يتزودوا بزاد من كوابح الشريعة الإسلامية وعلومها، فتفننوا في ابتداع أساليب وأعمال ابتغاء تزكية النفس وتصعيد الوجدان، دون أن يعلموا أن ضرر هذا الابتداع أشدّ خطراً وأبلغ ضرراً من ضرر التقصير في تزكية النفس وأخذها بهذا المنهج التربوي. وهكذا، فقد تجمعت من جراء ذلك في هذا السبيل القدسي، طفيليات من الأشواك والعقبات التي تبعد السالك عن الله بدلاً من أن تقربه إليه، سواء أشعر بذلك أم لم يشعر.

ثالثها: مراعاة كثير من الناس لحظوظ أنفسهم، واتخاذهم هذا المسلك ذاته سبيلاً من نوع جديد إلى الوصول لكثير من أماني النفس وأهوائها.

فلقد تسلل إلى رتبة الإرشاد كثير ممن كانوا بأمس الحاجة إلى من يرشدهم ويزكيهم، ويحرر أنفسهم من غوائل الدنيا وشهواتها، وإنما دفعهم إلى اقتحام تلك الرتبة حب الزعامة

والتعظيم وشهوة إصدار الأوامر المطاعة، وجمع المال الكثير من أيسر طريق، إذ كان مركز الإرشاد من أيسر السبل وأقصرها إلى تحقيق ذلك كله.

فهذه أهم الأسباب التي ظهرت فعلاً من قبل عصر ابن تيمية، ثم إنها استشرت واتسعت في عصره، فأورثت جملة انحرافات تمثل معظمها في بدع منكرة، وفي الاعتماد على أحاديث باطلة أو ضعيفة جداً، وفي تحول سبل الإرشاد عند كثير من الناس إلى سلّم يقصد منه البلوغ إلى شهرة أو التمكن من مركز ومنصب، أو جمع أكبر قدر من المال.

فحمل ذلك ابن تيمية رحمه الله على أن يتجرد لإنكار هذه الانحرافات، والرد على دعاتها، وتحذير العامة منها، وقد شغله ذلك وصرفه ولا ريب عما كان جديراً أن يهتم به من الإشادة بجهود وجهاد الصالحين والمخلصين من أئمة هذا الطريق، ودعوة العامة إلى سلوك سبيلهم والأخذ منهم والاقتداء بهم.. على أنه فعل ذلك، فما أكثر ما كتب في مناقب أمثال الجنيد البغدادي، والشيخ عبد القادر الجيلاني، وسهل التستري، وعبد الكريم القشيري، وجعل من تراجمهم وسيرة حياتهم مقياس الاستقامة في هذا الطريق على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما أكثر ما دعا إلى ما كانوا يدعون إليه، ولكن كتاباته هذه ذابت واضمحلت في ذلك البحر المتلاطم من كتاباته الواسعة الأخرى التي عرى فيها انحرافات أولئك المندّسين في هذا الطريق، والذين اقتحموا هذا المنهج الرباني العظيم دون دراية من علم ولا انضباط بقيود الشريعة وأحكامها.

ولا شك أننا واجدون في المآخذ التي أخذها ابن تيمية رحمه الله على كثير من هؤلاء المتصوفة ما لا يسعنا إلا أن نوافقه عليه، ما دام ميزاننا المتبع في كل الأحوال هو الشرع الإسلامي المنبثق عن كتاب الله وسنة رسوله. ولكننا قد نرى أيضاً في هذه المآخذ، ما يخضع للنظر والاجتهاد وما قد يحق لأمثاله من العلماء، أن يروا فيه رأياً آخر غير الذي اقتنع هو به واتجه له.

فمن القبيل الأول إنكاره على المتصوفة الذين يذمون العقل ويهونون من شأنه، ليروجوا بذلك للأحوال الوجدانية التي قد تجتاح المشاعر في غفلة من رقابة العقل، ومن ذلك أيضاً الترويج لبدع لا سند لها ولا دليل عليها، كالدعوة إلى الصمت الدائم، والامتناع عن أكل

أطايب الطعام وشرب الماء البارد، والتزيي بمظاهر لا تتفق ومقاييس الشرع تحطيماً للنفس وكسراً لشوكتها، وقطعاً لدابر
أطماعها.

ومن ذلك أيضاً إقحام كثير من الملاهي والرقص في مجالس الذكر، دون تقييد جواز ذلك بهجوم حال، يغيب معه الرشد والوعي وترويجهم لكثير من الأحاديث المخترعة التي لا أصل لها لمجرد أنها تدعم آراءهم وتؤيد انحرافاتهم.

ومن القبيل إنكاره لذكر الله عز وجل بالاسم المفرد. فلا ريب أننا نرى أن هذا مذهب اجتهادي يراه ابن تيمية ويعتمد فيه على الأدلة التي لاحت له واقتنع بأنها ذات دلالة على ما يرى أنه الحق. غير أننا قد نرى أدلة أخرى تسوغ هذا الذكر، وتنفي عنه سمة الابتداع، من مثل قول الله عز وجل: (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً).

وقوله: (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ)، والخوض في هذا المبحث يحتاج إلى كلام طويل لسنا بصدده الآن، غير أن المهم أن ننبه إلى أن الخطب في هذه المسألة يسير، فهو أمر اجتهادي، والأمور الاجتهادية ما ينبغي أن تعالج بالحدّة التي تعالج بها المنكرات التي لا سبيل للاجتهاد فيها.

ومن هذا القبيل أيضاً مسألة لبس الخرقة، التي غدت شعاراً من بعد عصر السلف للمتصوفة عندما يبلغ أحدهم مرحلة بعينها في السلوك، وهي أشبه ما تكون بالإجازة التي ينالها طالب العلم عند اجتياز مرحلة معينة في الطلب.

وعلى الرغم من أنني، اعتماداً على ذوقي الشخصيّ، قد أوافق ابن تيمية في استنكار لبس الخزقة هذه، غير أن المسألة من خلال المنظور العلمي الصافي خاضعة للنظر والاجتهاد، ولا يتسع هذا المقام لعرض الأدلة وذكر احتمالات المناقشة والحجاج.

وأما الرابطة، التي هي أصل هام، في العلاقة القائمة ما بين المريد والشيخ عند النقشبندية، فالحقيقة أن الحكم في حقها يتبع المعنى المراد بها. فإن كان المراد بها ما قد جزم به بعضهم من أن على المريد عند بدئه بذكر الله عز وجل، أن يتصور شيخه في سره، فلا شك أنها مظهر لأقذر وأخطر أنواع الشرك، وقد تكون في أصلها دسيسة أقحمها بعض الزنادقة في هذا المنهج التربوي السديد في أصله وحقيقته، ولم نجد أصلاً لها _بهذا المعنى_

عند أحد من المتقدمين لهذه الطريقة، كالشيخ محمد الأويسي القرني، وكالشيخ أحمد الفاروقي السرهندي المعروف بالإمام الرباني، بل كان ولا يزال العلماء المحققون من شيوخ هذه الطريقة يحذرون من الانزلاق في هذا الزيغ، ومن أبرزهم وأشهرهم العالم الأصولي الفقيه المعروف بلقب: مولانا الشيخ خالد النقشبندي "المتوفى عام1242هـ".

وأما إن كان المراد بها رابطة المحبة التي ينبغي أن تنعقد ما بين الشيخ والمريد، فإنها لأساس تربوي سليم لا مجال لنقده أو الارتياب فيه، ما دامت المحبة في الله عز وجل، وما دامت قائمة على بصيرة الشريعة الإسلامية وهديها. بل أغلب الظن أن المربي لن ينجح في تسليك المريد، وإقصائه عن طريق الغواية والانحراف، إلاّ إن اتجه قلب المريد إلى شيخه بشيء من هذا الحب، ولكن لا بدّ من رقابة دقيقة لعوامل هذه المحبة وما قد تدفع إليه، على ضوء من ميزان الشريعة وآدابها، كي لا يقع اللبس بين الحب في الله الذي هو من أبرز مظاهر التوحيد. والحب مع الله الذي هو من أبرز مظاهر الشرك، كما يقول ابن تيمية رحمه الله.

السبب الثالث: أن كل الذين خاصموا التصوف لسبب ما، من بعد عصر ابن تيمية، جعلوا من ابن تيمية ومواقفه شاهداً لهم.

والحقيقة التي لا ريب فيها أن ابن تيمية رحمه الله قد ظُلِمَ من قبل هؤلاء الناس...لقد ظُلِمَ من قبلهم مرتين:

المرة الأولى: أنهم نسبوا إليه بسبب جهلهم أو بسبب أغراضهم التي يتأبطونها ما لم يقله، وما لم يخطر منه على بال، فقد صوروا منه عدواً للتصوف، وهو من أبرز المنافحين عنه والداعين إليه، والقائلين بوجوب الانخراط في منهجه التربوي على كل مسلم.

والمرة الثانية أنهم صبغوه بذلك، في تصور كثير من الناس، بل حتى العلماء والباحثين السطحيين، بصبغة المنكر لهذا الذي ثبت أنه من جوهر الإسلام ولبابه، والمنتقص لكل من سار في هذا الطريق وسلَّك الناس في طريق تزكية النفس. حتى غدا اسم ابن تيمية عند عامة الناس رمزاً لمحاربة هذا السبيل الإسلامي القويم.

مع أن الرجل، كان قد ظهر لنا من الرجوع إلى أقواله وواقع ترجمته على النقيض من ذلك. أما إنكاره للبدع التي علقت به، والانحرافات التي أدخلت عليه، وما ظهر من اهتمام

بالغ له في شأنها، فإنه لا يدل في الحقيقة إلا على مبلغ تعلّقه بالتصوف الحقيقي السليم وعلى مدى غيرته عليه، أن يُدسَّ فيه شيء من الزغل أو البدع والأباطيل.

ولا شك أن تعصب كثير من المتصوفة الذين جعلوا من التصوف مهنة دنيوية لهم، دوراً كبيراً في الإساءة إلى حقيقته، وفي وضع ابن تيمية، قسراً عنه، على خط المحاربة له والانتقاص من أهله وأئمته.

فتلك هي جملة العوامل التي أظهرت هذا الإمام الجليل، عند كثير من الناس، في مظهر المنكر لحقيقة التصوف بل المفسق والمبّدع لأئمته و رجاله. ولا شك أنه ظُلِمَ بذلك أيما ظلم.

وما يصدق على ابن تيمية في هذا الصدد، يصدق على تلميذه الإمام القيم، فمنهجها واحد، وحسبنا شاهداً على ذلك كتابه العظيم في هذا الفن "مدارج السالكين".

علماً بأننا لا نبرئ ساحة أي منهما عن الخطأ في الاجتهاد، فما منا إلا من رَدَّ ورُدَّ عليه حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنا نكره أن تذهب الحقيقة ضحية تشنجاتنا وعصبيتنا وأهوائنا.

صفوة القول غياب التصوف هو المسؤول عن جلّ مشكلاتنا اليوم

بل هو المسؤول أيضاً عن البدع والانحرافات التي تسللت إلى جوهر التصوف وحقيقته...؟

فلو أن النفوس زكيت وتطهرت من أهوائها ورعوناتها وعصبيتها _وهذا هو لب التصوف ومعناه_ لما تحول التصوف عند أرباب هذه النفوس إلى مطية لشهرة، أو حرفة لمال، أو إطارٍ لأبّهة، أو خندق لمحاربة العلم والانضباط بقيوده وأحكامه.

لو زُكِّيت النفوس، كما أمر الله في محكم تبيانه، لما فرق المسلمون أنفسهم فئات وجماعات، ثم انهالت كل جماعة على الأخرى توسعها انتقاصاً وشتماً، بل وتكفيراً في كثير من الأحيان.

ولو زكيت النفوس لما انتشرت آفة حب الرئاسة، مقنّعة بأقنعة شتى، بين الفئات والجماعات المسلمة، فتقارعت الرؤوس وتشاحنت النفوس، ووقع الإسلام الضحية الأولى لذلك، فيما بينهم.

ولو زكيت النفوس هذه التزكية التي لا يدور إلاّ على محورها التصوف الحقيقي لما كان نصيب الإسلام من جهودنا وقفاً عند حدود الدعاوي والأقوال، ولما نسينا تحرّقنا وآلامنا على الإسلام، عند ظهور بارقة من بوارق الشهرة أو الرئاسة أو المال.

ولو زكيت النفوس، لفاضت القلوب حبّاً لله عز وجل، وخوفاً ومهابة منه؛ ولأثمر هذا الحب حباً لعباد الله وشفقة عليهم "والحب في الله كما يقول ابن تيمية رحمه الله من أرقى درجات التوحيد ومعانيه"، و لشاع فيما بينهم الإيثار بدلاً من الأثرة، وتآلفت أفئدتهم، بدلاً من التناكر والتدابر، و لجاءت نصائح بعضهم لبعض نورانية مؤثرة تستقر في أعماق القلوب وتفعل فعلها الهادي في طوايا النفوس.

تزكية النفوس هذه، من منا يتساءل _على الرغم من أهميتها_ عن مصيرها في مجتمعاتنا، ومن منا يهتم بوضع السبل التربوية الكفيلة بها؟

صحيح أن السبيل إلى هذه الزكية الواجبة، قد تسلّل إليها كثير من البدع والانحرافات على أيدي كثير من السالكين والموجهين، أو ربما التلامذة والمريدين. ولكن فما الذي يجب أن يفعله العلماء المخلصون الرقباء على دين الله حيال ذلك؟

إن ما يصنعه بعض أهل العلم هو استنكار هذا السلوك كله، والتحذير من الأخذ بأسباب هذه التربية من حيث هي، لأن بدعاً أخذت تشيع فيها ولأن أخطاء ظهرت في حال أو سيرة بعض المشتغلين بها..! حتى استهان الناس بتربية هذا الجانب من الكيان الإنساني أيما استهانة، وانتهوا إلى حالة حسبوا فيها أن الإسلام المسلم يتحقق بإدراك العقل ويقين الفكر، أما عواطفهم فبقيت طليقة من أي قيد أو ارتباط وجداني، فكان أن استعمرها وتحكّم بها حب الشهوات والأهواء وهيمنت عليها رعونات النفس و رغائبها.

ونحن نقول: أما البدع والانحرافات فما من ريب أن على المسلمين الابتعاد

عنها والتحذير منها. ولكن علينا، ونحن نحارب هذه البدع ونحذّر منها، أن نبقي على الأساس السليم وأن نحافظ على جوهر الاتباع. وإلاّ فأي خير حققه ذاك الذي يدمر بالسلاح الذي يحارب به البدعة، جوهر الدين وأساسه؟ وقد علمنا مما أجمع عليه المسلمون أن هذه التربية الباطنية، مأمور بها في حق الخاصة والعامة.

أي خير حققه ذاك الذي حارب الذباب المتساقط على وجه صاحبه، بصخرة طحنت رأسه قبل أن يتطاير الذباب عنه...؟!

والشباب المسلم الذي يتكاثر بفضل الله في كل بقعة من أرضه الواسعة، يظلّ يسأل، تحت إلحاح فطرته الإسلامية الظامئة: كيف السبيل إلى أن أسمو على نفسي وأهوائها في هذه الأزمنة العصيبة وسط هذه المغريات المتأججة؟ كيف السبيل إلى أن أشعر بلذة المناجاة للخالق إذا وقفت بين يديه في صلاة أو جلست أقرأ قرآناً؟ كيف أصنع لأرقى بمشاعري إلى الرتبة التي أعبد الله فيها كأنني أراه؟ كيف أجعل محبة الله ملء كياني حتى لا أحب مع الله سواه، وكيف أجعل المخافة منه ملء شعوري حتى يذوب من قلبي الخوف من كل ما سواه؟

نعم؛ إنا لنعلم أن الشباب المسلم الظامئ يظل يسأل هذه الأسئلة، ولا من مجيب، لأن الذين عليهم أن يجيبوا، منهمكون في ملاحقة البدع والسعي للقضاء عليها..! ولكن فلنعلم أن هؤلاء الشباب إن لم يجدوا أنفسهم أمام أجوبة علمية سليمة تروي ظمأهم الإسلامي، فلسوف يقعون، شئنا أم أبينا، في تيار هذه السبل التربوية القائمة على ما فيها من بدع وأخطاء، لأن شيئاً ما خير من لا شيء، إن لم يؤمن بذلك العقل دائماً انقاد له الشعور والوجدان غالباً. وتلك هي حال معظم الذين يقبلون إلى الإسلام اليوم في مختلف بقاع أوروبا وأمريكا. وهذا هو السر في تعشقهم للتصوف الذي وجدوه أمامهم، دون أن يجدوا، البديل الذي هو أفضل منه..!

إذن؛ فإننا لا نعدو الحقيقة، عندما نقول: إن جلّ مشكلات مجتمعاتنا الإسلامية اليوم إنما يكمن في غياب هذه التربية الوجدانية التي هي العمود الفقري في جوهر الإسلام.

غير أنني لا ألح من خلال هذا الكلام على الاهتمام بكلمة التصوف، والتسابق إلى الطرق التقليدية المتبعة تحت هذا العنوان.

بل لقد كان مسمى هذا الذي يطلقون عليه اليوم اسم التصوف، في صدر الإسلام، حقيقة لا اسم لها، إلا ما سماها الله به من التزكية والتنزه عن باطن الإثم، ثم عاد اليوم اسماً لا مسمى له(على الغالب)إلا جملة وظائف وأعمال، هي بالصنائع والحرف المتوارثة أشبه منها بأي شي آخر. وإنما أطلب من دعاة الاتباع ومنكري الابتداع إعادة كل شيء إلى وضعه

الذي وضعه الإسلام فيه. دعوا اسم التصوف جانباً واستعيدوا مسماه القديم، استعيدوه التزاماً وسلوكاً في حياة المسلمين.

وإننا لواجدون أصول هذه التربية ومنهاجها في كتاب ربنا وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام، فإن أتيح لنا معهما المرشد المخلص الناصح فذاك، وإلا فلنلتزم بما يأمرنا به ــ في صدد هذه التربية ــ كتاب الله وسنة رسول الله وأمره في كل منهما واضح وصريح.

لقد ندبنا القرآن إلى القيام بالأسحار، راكعين وساجدين، مكثرين من الاستغفار بضراعة وذل، فهذا أول جزء من المنهاج المرسوم.

ولقد أمرنا القرآن أيضاً بالإكثار من ذكر الله في نفوسنا ودون الجهر من القول ونهانا أن نكون من الغافلين، ثم زاد الأمر تأكيداً في أوقات البكور والآصال، نكثر فيهما من التسبيح والتحميد بقلب خاشع حاضر. وهذا جزء ثان من المنهاج.

ولقد أصانا القرآن بالإكثار من تلاوته، بآداب، لا مجال في هذا المقام لذكرها، وقد ذكر العلماء أن من أعظم أنواع الذكر وأبرّها الاشتغال بتلاوة القرآن، فهذا جزء ثالث من هذا المنهاج.

ولقد نهانا كتاب ربنا عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن أن نغذي جسومنا بشيء من الحرام، وأكد نبينا عليه الصلاة والسلام أن الجسم الذي غذي بالحرام فالنار أولى به، وقد علمنا أن أكل الحرام يغلف القلب بالسواد ويجلّله بالران، فلا يتفتح لموعظة واعظ ولا يهزه ترغيب ولا يخيفه ترهيب...وهذا جزء آخر من المنهاج.

ولقد أمرنا كل من كتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام، بمصاحبة الأخيار، والابتعاد عن مجالسة الأشرار، فإن مصاحبة الأخيار تنقل إشراق أفئدتهم إلى قلبك وإن نظرهم إليك ينير طوايا نفسك. وإن في مجالسة أصحاب رسول الله له والآثار التي اكتسبوها من ذلك، لأكبر شاهد على ما نقول. ولا ريب أن النقيض يورث النقيض. فهذا جزء آخر، وليس أخيراً من المنهاج.

ثم إن كلاً من كتاب ربنا وسنة نبينا قد أمرنا بالإكثار من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، دون قيد من زمان بعينه أو مكان بعينه، إلا ما أكدته السنة من الترغيب في الإكثار من الصلاة عليه في اليوم والليلة الزهراوين، يوم الجمعة وليلتها، وقد أجمعت الأمة

على أن الإكثار من الصلاة على سيدنا رسول الله من أفضل ما يجلو القلب ويطهر النفس.. وهذا جزء آخر، وليس أخيراً من المنهاج.

فمن هذه الأوامر والنواهي يتكامل منهاج تزكية النفس وتربية الوجدان، وهي لب ما جاء به كتاب الله وسنة رسول الله، وباتباع هذا المنهاج تنمو محبة الله في القلب، وتنتشر مهابته في جوانب النفس، وقد يظهر في حياة المسلم ما يسمى بالأحوال والمقامات، ويسمو بالمسلم فوق المشكلات التي ألمحنا إلى نماذج منها. فأين هم الذين يهتمون بالدعوة إلى سلوك هذا السبيل، ويصوغون منها بنياناً تربوياً يأخذون به الشباب والطلاب على طريق الدعوة إلى الإسلام. وهلا اهتموا بإشادة هذا البنيان الإيجابي قدر اهتمامهم بذلك الجانب السلبي إلا وهو محاربة البدع والأخطاء؟

وصفوة القول، أن سائر مشكلاتنا النفسية والاجتماعية التي ترزح وتئن مجتمعاتنا الإسلامية تحت وطأتها، إنما هي وليدة إعراضنا عن تربية النفس و إصلاح القلب، بوسائلها المشروعة والمعروفة التي طالما نبّه إليها الربانيون من علماء هذه الأمة خلال القرون والأجيال.

ومهما بقينا معرضين عن الإقبال إلى هذه التربية بجدّ وإخلاص، فإن مشكلاتنا هذه ستظل في تكاثر وانتشار، وسيظل الإسلام يُنْتَقَصُ منه في نفوسنا وحياتنا، حتى لا تبقى منه إلا رسوم وأشكال، بل سيزداد انتقاصاً حتى لا يبقى منه إلا آثار وأطلال.

المصدر كتاب قضايا ساخنة للإمام العلامة الشهيد الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي

طباعة دار الفقيه